مقدمة المترجم

إن الانشغال الغربي بالقرآن الكريم ليس جديدًا، بل قديم جدًّا، إذ إنه قد أُنجزت أول ترجمة جادة للقرآن إلى اللاتينية عام 1143م، لكن لم يكن انشغالًا بحثيًّا بالمعنى المتبادر للذهن، وإنما كان عدائيًّا[1]. ثم شهد القرن السادس عشر مرحلة جديدة من الاهتمام بالعربية والإسلام مع ظهور علماء متمرسين سعوا إلى فهم القرآن من بوابة التحليل اللغوي، بالاستناد إلى العبرية واليونانية (لغتَي الكتاب المقدس) ولغات سامية أخرى كالسريانية والإثيوبية. وشهد أيضًا هذا القرن تأسيسات مهمة، مثل تأسيس الكلية المارونية في روما عام 1584م، التي خرجّت عددًا من المستعربين، وتأسيس مناصب أستاذية للغة العربية في الجامعات الأوروبية الكبرى[2]. ومع ذلك، ليس ثمة حضور كبير لتلك الكتابات في الدراسات القرآنية المعاصرة، لذلك ننتقل مباشرة إلى الدراسات القرآنية الغربية الحديثة.

يمكن القول إن بداية الدراسات القرآنية الغربية كانت في عام 1833م، عندما نشر أبراهام غايغر كتابه «ماذا اقتبس محمد من اليهودية؟»، وفكرة الاقتباس هذه، سواء من الكتاب المقدس أو الأعمال شبه الكتابية مثل الشروح المدراشية وغيرها، ستكون نقطة انطلاق لنمط من البحث العلمي سيتواصل على يد آخرين في القرن

(1) كما يظهر مثلًا من عنوان الترجمة اللاتينية محل الحديث «شريعة محمد، النبي الزائف: Lex Mahumet pseudoprophete».

(2) ديفين ستيورات، تأملات في واقع الدراسات القرآنية الغربية، في «الإسلام وماضيه: الجاهلية والعصور القديمة المتأخرة والقرآن»، بتحرير كارل باخوس ومايكل كوك، ابن النديم-دار الروافد، 2025، ترجمة وتعليق: مصطفى سمير عبد الرحيم، ص26.

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهذا طبيعي، لأن هؤلاء الباحثين كانوا على دراية واسعة بالإرث الكتابي وتلقوا تدريبًا في الدراسات الكتابية[1]. وكان محل الخلاف هل التراث اليهودي هو صاحب التأثير الغالب على القرآن أم التراث المسيحي. أما السياق الذي نزل فيه القرآن الكريم فلم يكن موضع اهتمام يُذكَر، فعلى الرغم من أن يوليوس فلهاوزن نشر كتابه الشهير «بقايا الوثنية العربية» عام 1887م، إلا أنه «حتى وقت قريب كان التأثير الديني الوثني قبل الإسلام على القرآن مقلَّلًا من أهميته»[2]. ومن أهم الأعمال في تلك الفترة كتاب ثيودور نولدكه «تاريخ القرآن»، الذي وسّعه خلفاؤه، وأثر بعمق في الأجيال اللاحقة من باحثي الدراسات القرآنية، ولا سيما تحقيبه للسور والتسلسل الزمني الداخلي للنص القرآني وعملية الجمع. ولا ننسى كتاب جولدتسيهر «مذاهب التفسير الإسلامي»، وكلاهما مترجم ومبحوث عربيًّا، بل إن كتاب نولدكه تُرجم إلى العربية عن الألمانية قبل أن يُترجم إلى الإنجليزية، لذلك لن نطيل في الحديث عنهما. كما أُنتجت ترجمات للقرآن الكريم إلى لغات أوروبية، مثل ترجمة ريتشارد بيل إلى الإنجليزية في ثلاثينيات القرن العشرين وترجمة ريجيس بلاشير إلى الفرنسية عام 1947م. وقد تعطّل النمط البحثي الذي أشرنا إليه قبل قليل في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، لكن من أهم كتابات فترة ما بين الحربين العالميتين كتابات آرثر جيفري، وهو باحث مشهور متخصص في اللغات السامية. وبعد انقطاع من الحرب العالمية الثانية إلى أواخر القرن العشرين كان هناك حراك عظيم في الدراسات القرآنية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، لأسباب كثيرة، منها تطور الدراسات الكتابية نفسها، والاهتمام الشديد بالمصادر شبه الكتابية، وظهور مصادر جديدة كمخطوطات قمران، وأعمال مؤثرة مثل كتاب «دراسات قرآنية» لجون وانسبرو في أواخر السبعينيات، واستيراد مناهج فلسفية أو تأويلية للتعامل مع النصوص، وبروز مفاهيم أنثروبولوجية مثل الشفاهية ومعنى أن يكون النص منقولًا شفهيًّا.

شهدت الدراسات القرآنية في العقود الثلاثة الماضية انفجارًا بحثيًّا وأكاديميًّا،

(1) المرجع السابق، ص28.

(2) المرجع السابق، ص30.

فقد تأسست مجلة الدراسات القرآنية اللندنية عام 1999م، وعُقدت مؤتمرات مرتبطة بها كل عامين بانتظام، ونشرت دار بريل «موسوعة القرآن» تباعًا في مطلع الألفية الثالثة، وموَّلت أكاديمية برلين-براندنبورغ للعلوم في ألمانيا مشروعًا ضخمًا وممتدًّا وهو «المدونة القرآنية Corpus Coranicum»، والهدف منه هو جمع المخطوطات القرآنية والنصوص الأخرى التوثيقية (وباب المخطوطات القرآنية من أهم الاشتغالات الأكاديمية حاليًّا). كما انتشرت أعمال تفسيرية وبحثية كثيرة، على رأسها كتابات أنجليكا نويفرت، التي تتميز بتفاعل مفيد مع نتائج الاستشراق الكلاسيكي. وانطلقت مؤخرًا مجلة الجمعية الدولية للدراسات القرآنية (IQSA)، وفيها أوراق مميزة جدًّا. وهناك وفرة من أطروحات الدكتوراه في الجامعات الغربية عن مفاهيم معينة في القرآن. ولا يمكن أن نغفل عن منصات النشر الإلكتروني، مثل academia.edu، التي ربطت بين جميع الباحثين في العالم، وباختصار: «هذا الحقل بأَسْرِه أصبح أكبر بكثير مما كان عليه في أي وقت مضى في التاريخ»[1].

على المستوى العربي ثمة انطلاقة ترجمية لمواكبة ذلك «التراكم المعرفي»، إذ فتح مركز تفسير للدراسات القرآنية نافذة على الأكاديميا الغربية بترجمة مقالات مؤثرة وثرية (وقد التزمت قدر الطاقة بالاختيارات الترجمية للمركز بغية التوحيد الاصطلاحي)، ونُشر مؤخرًا أعمال مهمة وحديثة جدًّا في دور نشر عربية مختلفة، ولما كان المأمول من الباحثين المسلمين التفاعل المثمر مع تلك الدراسات سواء بالإضافة أو التأييد أو النقد، سعى مركز نماء إلى وضع خطوة على هذا الطريق، خطوة أجدها أولى من غيرها، وهو توفر معجم للمفردات القرآنية الأساسية بحسب ما وصلت إليه الدراسات الغربية. لا أحصي عدد مرات استفادتي من الكتاب الفذ «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، بل أحيانًا أجد فيه ما ليس في المعاجم العربية[2]. لكن يغيب عن تراثنا العظيم أحد أهم موارد الدرس الغربي، وهو اللغات السامية، ومن هنا كان من الضروري وجود مرجع للباحثين العرب ينشغل بشدة بالعلاقة بين اللفظ القرآني

(1) المرجع السابق، ص44.

(2) وكذلك الكتاب المعاصر «المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم» للدكتور محمد حسن جبل.

ونظائره السامية، ولا سيما أنّ من مميزات دراسات العقود الأخيرة للنص القرآني التحول غالبًا عن الرأسية إلى الأفقية، بمعنى أن كثيرًا من الباحثين أصبحوا يدرسون القرآن في سياقه التاريخي (وما أكثر البحوث الغربية التي يحمل عنوانها كلمة «في سياقه»، حتى باتت الكلمة مستهلكة) بصرف النظر نسبيًّا عن النظرة التطورية الجذرية: إرجاع كل لفظة أو فكرة إلى مصدر أصلي أو «سلف مشترك». وهذا لا يعني أن المسار الرأسي لم يعُد موجودًا، بل هو حاضر ولو ضمنًا، لكنه عادة ما يفوقه المسار الأفقي الذي يساعد في الوصول إلى الفهم الأول (فهم الذين نزل عليهم القرآن) للمفردة أو الفكرة. ومن الموارد الأخرى التي تميز الدراسات القرآنية الغربية المصادر السريانية والعبرية التي تحمل بعض التشابهات مع عبارات قرآنية، وينطبق عليها ما ينطبق على المفردات نفسه. وأشدد على أن هذا ليس تسليمًا بما يقوله بعض الغربيين أو حتى أكثرهم بتأثر القرآن بدلالات أو مفاهيم كتابية أو وثنية، وإنما نهج مفيد في الوصول إلى فهم المتلقين الأوائل، فالنبي صلى الله عليه وسلم بُعث في محيط ثري للغاية بالمفاهيم والمفردات الدينية، ولا أعني السياق الحجازي فحسب، بل الشرق الأدنى القديم بأكمله، ومن المتصور والمتوقع أن يوظّف القرآن تلك المفاهيم والمفردات توظيفًا يتناسب مع رؤيته للعالم. وحتى على قبول المسار الرأسي فإن القول بوجود تأثر قرآني لا يكون في العادة نتيجة علمية، وإنما هو نظرية أو فرضية[1]، وأدعو الباحثين

(1) على سبيل المثال أجاد الأكاديمي غيوم داي في تتبع المصادر المزعومة لسورة مريم، مثلاً يُرجع آيات مخاض مريم إلى إنجيل متى الزائف، وهي -المصادر- بحسب وصفه كثيرة ومتفرقة، بين أناجيل غير مشهورة وليتورجيا [طقوس] يونانية وعادات مسيحية في التأليف وغير ذلك، ومن ثم لا يمكن لمؤلف في البيئة الحجازية أن يكون مطلعًا عليها (فضلاً عن دمجها وتحاشي مناطق النزاع بين المسيحيين واستخدام المشاهد كلها في حبكة سردية)، ومن ثم يستنتج داي أن «التفسير الأرجح هو أن المؤلف لم يكن من سكان الحجاز...فضلاً عن ذلك فإن مثل هذا النص البارع يتطلب ملكات محددة مختلفة ينبغي أن نتساءل كيف أمكن له اكتسابها. والتفسير الواضح أن مؤلفنا ينتمي إلى طبقة الأدباء الدينيين. وبعبارة أخرى: كان المؤلف بلا شك راهبًا مسيحيًّا «تحول» إلى الدين الجديد...بعد الفتوحات بالتأكيد». انظر:

Guillaume Dye, «The Qur'ān and its Hypertextuality in Light of Redaction Criticism,» The Fourth Nangeroni Meeting Early Islam: The Sectarian Milieu of Late Antiquity? (Early Islamic Studies Seminar, Milan) (15-19 June 2015): 10.

هذا مثال على التفريق بين الجهد البحثي والفرضية.

إلى الاستفادة من الروابط نفسها لتحقيق أكمل تفسير للقرآن، ولا سيما الآيات المشكِلة تراثيًا. وأرجو من الله سبحانه أن تكون هذه الترجمة نافعة لهم ودفعة إلى تفاعل بحثي قوي مع الأكاديميا الغربية.

لماذا هذا الكتاب؟

أسعدني كثيرًا اختيار الدكتور ياسر المطرفي ترجمة هذا الكتاب، فقد كنت أنوي بالفعل اقتراحه على المركز، وذلك لعدة أسباب:

- تخلو مكتبتنا العربية من معجم للمفردات القرآنية من حيث تعلقها بنظائرها السامية والمصادر المبكرة لها، فضلًا عن الوقوف على مخرجات الدراسات الأكاديمية الغربية.

- الأعمال الأساسية التي يتفاعل معها هذا المعجم مترجمة بالفعل، منها كتب العالم الياباني توشيهيكو إيزوتسو، وتعليقات نيكولاي سيناي على نقولاته عن إيزوتسو مميزة ومستفيضة أحيانًا.

- حضوره القوي في النقاشات الأكاديمية منذ لحظة صدوره، كما يظهر مثلًا من النقاشات الإنجليزية الدائرة في منصة إكس (تويتر سابقًا).

- المعجم مرتب حسب الأبجدية العربية، وهي ميزة ثمينة للقارئ العربي (وإن لم تكن كذلك للقارئ الإنجليزي بطبيعة الحال، ولذلك كيّف المؤلف هذا الأمر للقراء الإنجليز بمسردين ونوع خاص من الإحالات[1]).

- يتميز نيكولاي سيناي بنفس هادئ في بحوثه عمومًا، فهو ليس شكوكيًا متطرفًا في المصادر الإسلامية كالاتجاه التنقيحي، ولا يتسرع فيعارض بين آي القرآن، وإن

(1) فمثلًا، في المدخل «← رب العالمين» يضع المؤلف في أحايين قليلة رمزًا بين «رب» و«العالمين» للإشارة إلى وجود مدخلين مختلفين أو أن المفردة محل النقاش تندرج في الثاني لا الأول، أي في «العالمين»، لكنني اخترتُ التغاضي عن هذا الترميز للتسهيل ولأنه لا يفيد القارئ العربي كثيرًا، فالمعجم مرتب بلغته الأم.

كنت أختلف كثيرًا مع آرائه في بعض المداخل، لكن الكتاب كبير ومكتظ بالإحالات بما فيه الكفاية، فآثرت ألا أعلق أي تعليق نقدي[1]، بل إن حواشِيَّ التوضيحية نادرة، فعادة ما يشرح المؤلف مراده بالمصطلح المعني أو أوضِّح المقصود بلفظ موجز في المتن نفسه بين العلامتين [ ].

(1) مما يسعدني بالطبع أن يطلع القارئ على أعمالي المنشورة المتقاطعة مع مدخلين أو ثلاثة من المداخل الأساسية في هذا المعجم (وفي نيتي أن أنشر إن شاء الله أوراقًا أخرى تفاعلية مع بعض المداخل الأخرى)، وهي «آية» و«أمّة» و«ملَك»، فلعله يجد فيها شيئًا من الإضافة:
- مفهوم الآية: بحث لغوي فلسفي.
- هل تطورت كلمة (أُمَّة) في القرآن الكريم؟
- هل يستعمل القرآن الكريم كلمة «الملائكة» استعمالًا لاتينيًّا؟